نتأمل تعليقه على قول الشنفرى فى لاميته :

أديمُ مطالَ الجوع حتى أُميتَهُ ... وأضربُ عند الذكر صفحاً فأذْهَلِ

وأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْض كَيْ لا يُرَى لَهُ ... عَلَيَّ من الطَّول امرُؤٌ متَطَوِّل [١٨]

ليقول : وإذا كان الجوع أقسى ما يصبه الفقر من سياط على جسد الفقير، فإن هناك سياطاً أخرى لا تقل قسوة عن سياط الجوع ، ولكنها سياط نفسية يصبها الفقر على نفس الفقير ، والحديث عن هذه السياط النفسية حديث يطول ، لأنها تختلف باختلاف النفسيات ووقع الفقر عليها » .

فإن وقف عند قول الشنفرى أيضا :

ولا عَيْبَ فى اليَحْمُوم غَيْرَ هُزَاله .. علَى أنَّه يوم الهيَاج سَمِينُ .

وكَمْ من عَظيم الخَلق عَبْلٍ مُوَثَّقٍ .. حَواه وفيه بَعْدَ ذَاكَ جُنونُ .

قال معلقا على الشاهد : (١٩)

وطرافة الصورة تأتى من أن الشنفرى يضفى صفات التصعلك على جواده . فهو جواد هزيل كصاحبه ، جنى عليهما الفقر والجوع ، ولكنه كصاحبه أيضا جرىء مقدام ، كأنما يشعر كما يشعر صاحبه بأن الحق للقوة ، وأن الرزق فى الشجاعة ، وأن الجواد الخامل كالصعلوك الخامل ، وتأتى طرافة الصورة أيضا من أن الشنفرى يلون صورة جواده بألوان مغامرته هو ، فإذا جواده صورة منه ، كم حوى من خيل سمينة قوية موثقة ، كشأنه هو مع أفراد مجتمعه الأغنياء ، وهكذا يقدم لنا الشنفرى جواده على أنه « جوادٌ صعلوكٌ » .

ولا نبالغ - إذن - إذا قلنا أن من حسن حظ شواهدنا التعرية الصعبة أن تقع ضمن دائرة اختياره لتكون موضوعاً لتحليله ، سواء ما وقع منها فى دائرة الصعلكة التى نحن بصددها هنا ، أو ما بدا أكثر منها صعوبة ووعورة وغموضاً على نحو ما ما صنعه فى دراسته الفنية حول « ذى الرمة » الذى رآه